﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور:50]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِن تنوير بصيرة المتلقّي هنا تحليلٌ نفسيَّة المنافق له

هذه الآيةُ نتاج ما قبلَها مِن الآيات، مِن قوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ إلى آخر قوله: ﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾؛ فإنَّهم ادَّعوا كمال الإيمان بالله ورسوله، ثم نقضوا ذلك بقوَّة وسرعة، فكان مِن شأن حالِهم هذا أن يكون مُشْكِلًا في أبصار المتلقّين وبصائرهم، فصوَّرَ القرآنُ ذلك بهذه الآية التي قامت على أسلوب الاستفهام المشاكل لحالهم المذكور.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّرَضٌ﴾: (مرض) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على ما يَخْرُجُ به الإنْسانُ عَنْ حَدِّ الصِّحَّةِ في أَيِّ شَيْءٍ كانَ، والمرضُ ضربان: الأوَّل: مَرَضٌ جسميٌّ، والثاني: عبارة عن الرَّذائل كالجهل، والجبن، والبخل، والنِّفاق، وغيرها من الرَّذائل الخُلُقيَّة، ويُشبَّه النِّفاق والكفر ونحوهما من الرذائل بالمرض، إمّا لكونها مانعةً عن إدراك الفضائل، كالمرض المانع للبدن عن التصرف الكامل، وإمّا لكونها مانعةً عن تحصيل الحياة الأخرويَّة المذكورة في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:64]، وإمّا لميل النَّفس بها إلى الاعتقادات الرَّديئة، كمَيل البدن المريض إلى الأشياء المضرَّة[1].

وقوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: أفي قلوبهم نوعُ فسادٍ مِن أصل الفطرة، يحملهم على الضَّلال؟[2]

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرض)، والراغب، المفردات: (مرض).
(2) الراغب، المفردات: (مرض).

2) ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾: (ريب) أُصَيْلٌ يَدُلُّ على شَكٍّ، أَوْ شَكٍّ وخَوْفٍ، فالرَّيْبُ: الشَّكُّ، قالَ اللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة:1-2]، أَيْ: لا شَكَّ[1]، والريب والريبة: الشكُّ والظنُّ والتهمةُ، ويقال: أراب الرجلُ يريب؛ إذا جاء بتهمة، وارتبتُ فلانًا: اتهمتُه، فالريبُ شكٌّ مع تهمةٍ، كما ذكر أهل اللُّغة[2].

وقوله: ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾، أي: أم حدثت لهم شُبْهة أعمتهم عن الطريق الحقِّ بعد ما تبيَّنَ لهم، فكان لا شُبْهةَ فيه، بدليل: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾.

3) ﴿يَحِيفَ﴾: (حيف) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ المَيْلُ، يُقالُ: حافَ عليه يَحيفُ؛ إذا مالَ[3]، والحَيْفُ: الميلُ في الحكم والجنوح إلى أحد الجانبين، قال اللهُ تعالى: ﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: يخافون أن يجورَ في حُكمه، ويقال: تَحَيَّفْتُ الشيء: أخذته من جوانبه[4].

ففي: ﴿يَحِيفَ﴾ معنى الظُّلم والجور في الحكومة، مع معنى الميل، والمعنى: أنَّهم يخافون أن يجور اللهُ عليهم ورسوله، ويميل رسولُهُ عنهم إلى غيرهم.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

المنافقون حالُهُم دائمًا مُشْكِلٌ

ماذا حدث لهم، أفي قلوبهم وأصل فطرتهم نوعُ فساد حملهم على تلك المخالفة الشنيعة؟ أم شكّوا في نبوَّته ﷺ فزالت ثقتهم به، مِن أجل تهمةٍ وشبهةٍ عرضَت لهم؟ أم يخافون أن يجور اللهُ عليهم ورسوله، مع ميل رسوله عنهم إلى غيرهم؟ إنَّ الحقَّ أنَّ هؤلاء هم الذين ظلموا الحقَّ، وظلموا أنفسهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ريب).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 275، وابن منظور، لسان العرب: (ريب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيف).
(4) الراغب، المفردات: (حيف).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل صدرِ الآية عمَّا قبله:

مِن شأنِ الأمور العجيبة السُّؤال عن سببها

وردت الآية: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مفصولةً عمّا سبقها؛ لكونها مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الآيات السابقة تحرِّك المتلقي لأن يسأل عن سبب أحوالهم الذميمة، فكان الجوابُ في هذه الآية؛ مُبيِّنةً منشأ إعراضهم المذكور "بعد استقصاء عدَّة مِن القبائح المُحقَّقةِ فيهم، والمُتوَقَّعةِ منهم، وترديد المنشئيَّة بينها"[1].

بلاغةُ الاستفهام:

مِـثْـلُ هـذه الأسباب يُتنبَّه لها، ويُتوخَّى الحذرُ منها

الاستفهام - في قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ﴾ - إنكاريٌّ توبيخيٌّ، وهو واردٌ في جملة تحليل أنفسهم المريضة وتصرُّفاتهم القبيحة؛ بإثبات نفاقهم، وبالتَّعجيب من تردُّدهم وريبهم، وباستنكار ما هم عليه من خُلُقٍ ذميم، فهو ترديدٌ لسبب الإعراض المذكور، فمدارُ الاستفهام ما يُفهم مِن الكلام، كأنَّه قيل: أسبب إعراضهم عن المحاكمة إليه ﷺ أنَّهم مرضى القلوب، لكفرهم ونفاقهم؟ أم سببه أنَّهم ارتابوا، وشكوا في أمر نبوَّته ﷺ مع ظهور حقيَّتها؟ أم سببه أنَّهم يخافون أن يحيف، ويجور اللّه - تعالى شأنه - عليهم، ورسوله ﷺ؟ فالاستفهام لإنكار السببيَّة[2].

وفي هذا الاستفهام تنبيهٌ على أخلاقهم، ولفت للأذهان إِلَى ما انْطَووا عليه، والدّاعي إِلَى ذَلِكَ: أَنَّها أَحْوالٌ خَفيَّةٌ؛ لِأَنَّهُم كانوا يُظْهِرونَ خِلافَها[3].

معنى (في)، ودلالة التعبير بها:

فـسـدتْ فـطـرتُـهـم، فتمكَّن فيها كلُّ قبيحٍ

حرف الجر (في) دالٌّ على الظرفيَّة، وعُبِّر به؛ للدلالة على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 130.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 18/ 196.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 270.

تمكُّن المرض من قلوبهم تمكُّنَ الظَّرف من المظروف؛ فإنَّ الكفر والفساد - المعبِّر عنهما بالمرض هنا - تمكَّنا من نفوسهم تمكُّنًا لا يبارح قلوبهم، حتى صار داخلًا فيها يملأ جميع جوانبها، فلا تكاد تعثر على قلب قد خلا منه، والتَّعبيرُ بالظرفية المقدَّمة هنا أبلغُ في أداء المراد من أن يقال: أمرضت قلوبهم أو أمريضة قلوبهم؟ إذ التعبير بالظرفية أوجزُ وأوفى في تصوير حالتهم النفسيَّة من أيسر طريقٍ وأخصره، مع المبالغة في بيانِ حالتِهم تلك، وقوَّى هذه الصورةَ دخولُ همزةِ الاستفهام الإنكاري على هذه الظرفيَّة.

سرُّ التَّعبيرِ بالقلب:

إذا فسد القلبُ؛ فسدَ الجسد كلُّه

القلبُ محلُّ التقلُّب كما هو سبب تسميتِه، وهو المحلُّ الجامع لخصال الإنسان؛ حسنةً كانت أو سيِّئةً، وعليه دوران حياة الإنسان من عدمها، وهو أشهر في التَّعبير عن جوامع الخير وموانعه، ويُعبَّر بالقلب عن المعاني التي تختصُّ به من الرّوح والعلم والشَّجاعة وغير ذلك، وتَقْليبُ الله القلوب والبصائر: صرْفُها من رأي إلى رأي، والتَّقَلُّبُ: التَّصرُّف، ورجل قُلَّبٌ حوَّلٌ: كثير التَّقلُّب والحيلة[1]، فإذا كان في قلوبهم مرضٌ؛ كان هذا المرض سببًا عظيمًا نشأ عنه الإعراضُ المذكور؛ لأنَّ فساد هذا المرض مُعتَبَرٌ؛ لحلوله في المكان الذي يكون فيه فعَّالًا.

عودُ الضَّميرِ في: ﴿قُلُوبِهِم﴾:

كلُّ مَنْ رفضَ حُكمَ الله تعالى وحكم رسوله مُتَّهم في قلبه

يعود الضمير في قوله: ﴿قُلُوبِهِم﴾ على الفريق المنافق الذي رفض حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ وعُبِّر بالضمير، ولم يُعبَّر بالاسم الظاهر؛ لسبق الحديث عنهم؛ إيجازًا، ولعدم الرغبة في إعادة ذكرهم باسمهم الظاهر؛ تقبيحًا لشأنهم، وحطًّا لمنزلتهم، حتَّى صاروا لا يُؤبه لهم، فيُذكرون صراحة.

(1) الراغب، المفردات: (قلب).

بلاغةُ تقديمِ ما بعد الهمزةِ على: ﴿مَّرَضٌ﴾:

مـرضُ المنافقين هو المرضُ

تقدَّم الجارُّ والمجرور في قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم﴾ على قوله: ﴿مَّرَضٌ﴾؛ للتَّخصيص، والمعنى: تخصيصُ قلوبهم بالمرض دون غيرهم؛ لكون القلب هو محلُّ هذه الأمراض، ولكونهم هم المقصودين بهذا الوصف، لا أحد سواهم؛ زيادةً في التَّوبيخ، والذَّمِّ، والإهانةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمرض:

أصعبُ الأمراض ما كان معنويًّا

المرضُ المستفهَم عن ثبوته في قلوبهم - في قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ - هو الكفرُ أو النِّفاق الذي مِن شأنه أن يجعلَهم غير منضبطين نفسًا وعقلًا، بقرينة سياق الكلام، فهم لا يُذمّون على المرض الحقيقي، فاستُعير للكفر أو النِّفاق المرضُ - الذي هو مصدر - استعارةً تصريحيَّةً؛ بجامع أنَّ كلًّا منهما يفسد ما دخله، فالنِّفاق أو الكفر يفسد الروح والنفس والقلب والفطرة والعقل، والمرض الحقيقيُّ يعكِّر على الإنسان صفوه؛ بسبب ما يعتري بدنَه مِن ألم وتعب.

سرُّ تنكير ﴿مَّرَضٌ﴾:

عَـظُـمَ الـداء فـي قلوبهم، واستفحل

ورد لفظُ المسند إليه ﴿مَّرَضٌ﴾ نكرةً؛ للنَّوعيَّة، أي: نوع شديد فظيع من المرض يسدُّ عليهم منافذَ الإيمان والحقِّ والعدل، فينصرفون عنه، ولا يقبلون حكمه فيهم؛ لفساد تلك القلوب وغلظتها ومرضها.

معنى ﴿أَمِ﴾ في الآية:

هـؤلاءِ المنافقون جمعوا أخسَّ الصفات

﴿أَمِ﴾ في قوله: ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ﴾: هي المنقطعةُ بمعنى: بل والهمزة، وهي للإضراب الانتقالي، فهي حرفُ عطف نائب عن تكرير الاسم والفعل، وقيل: إنَّما تشرك بين المتعاطفين، كما تشرك بينها (أو)، وقيل: فيها معنى العطف، وهي استفهام كالألف إلّا أنَّها لا تكون في أوَّل الكلام؛ لأجل معنى العطف[1].

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 180، 181.

وَأَتْبَعَ القرآنُ بَعْضَ الاسْتِفْهاماتِ بَعْضًا بِحَرْفِ: ﴿أَمْ﴾ المُنْقَطِعَةِ الَّتي هيَ هُنا لِلإِضْرابِ الانْتِقالِيِّ كَشَأْنِها إذا عَطَفَتِ الجُمَلَ الاسْتِفْهامِيَّةَ؛ فإنَّها إذا عَطَفَتِ الجُمَلَ؛ لَم تَكُنْ لِطَلَبِ التَّعْيينِ، كَما هيَ في عَطْفِ المُفْرَداتِ؛ لأَنَّ المُتَعاطِفاتِ بِها حينَئِذٍ لَيْسَتْ مِمّا يَطْلُبُ تَعْيينَ بَعْضِهِ دونَ بَعْضٍ، وأَمّا مَعْنَى الاسْتِفْهامِ؛ فمُلازِمٌ لَها؛ لأَنَّهُ يُقَدَّرُ بَعْدَ أَمْ، والانتِقالُ هُنا تَدَرُّجٌ في عَدِّ أَخْلاقِهِم، فالمَعْنى: أَنَّه إن سَأَلَ سائِلٌ عَنِ اتِّصافِهِم بِخُلُقٍ مِنْ هَذِهِ المَذْكوراتِ؛ عَلِمَ المَسْؤولُ أَنَّهُم مُتَّصِفونَ به، فكانَ الاسْتِفْهامُ المُكَرَّرُ ثَلاثَ مَرّاتٍ مُسْتَعْمَلًا في التَّنْبيهِ مَجازًا مُرْسَلًا[1].

فإن قيل: هذه الثلاثة: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية: متغايرة، ولكنَّها متلازمة، فكيف أدخل على الثاني والثالث كلمة ﴿أَمْ﴾؟ فالجواب الأقرب: أنَّه تعالى أنبههم على كل واحدة من هذه الأوصاف، فذِكرُ ﴿أَمْ﴾ في الثاني جعله مستقلًّا عن الأول، وذِكرُها في الثالث جعله مستقلًّا عن الثاني، فكان في قلوبهم مرضٌ وهو النِّفاق، وكان فيها شكٌّ وارتياب، وكانوا يخافون الحيفَ من الرَّسول، وكلُّ واحد من ذلك كفرٌ ونفاق[2].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بلفظ الارتياب:

الشَّكُّ: هو تردُّد الذهن بين أمرين على حدٍّ سواء، والريب: أن تتوهَّم بالشيء أمرًا ما، فينكشف عمّا تتوهَّمه، والارتياب يجري مجرى الإرابة، وإنَّما قيل: ريْبٌ لما يُتوهَّم فيه من المكر، والرّيبة اسم من الريب، والرَّيبُ شكٌّ مع تُهْمة وشُبْهة، "وقد خُصَّ الارتيابُ بما له منشأٌ مصحِّح لعروضه لهم في الجُملة، والمعنى: أم ارتابوا بأنْ رَأَوا منه ﷺ تُهمةً، فزالَتْ ثقتُهم ويقينُهم به ﷺ فمدارُ النَّفي حينئذٍ نفسُ

ارتـابَ المنافقون بداية في حقيقة الإســـــلامِ، فـتـحـقَّـق لـهـم الارتـيـاب بعد ذلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 271.

(2) ابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب: 14/ 429.

الارتياب ومنشؤه معًا"[1]، ولا يصحُّ أن يُعبَّر هنا بصريح الشَّكِّ؛ لأنَّ إقرارهم بالإيمان في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ يمنع منه، بل إنَّ حدوث المخالفة منهم مِن بعد ذلك الإقرار، يعني: أنَّ ظنًّا أو تهمةً أو شبهةً عرضت لهم؛ لحدوث الإشكال بتعقيب الإقرار بالمخالفة بالإعراض والتولّي، فكان الألصق بحالهم هذه اللفظة: ﴿ٱرْتَابُوٓاْ﴾.

دلالةُ المُضيِّ في: ﴿ٱرْتَابُوٓاْ﴾:

الارتيابُ عريقٌ وحَيٌّ فيهِم

وردَ فعل الارتياب ماضيًا؛ لتحقُّق وقوعه منهم، وحصوله حقيقةً، وقد كان ارتيابهم في حقيقة الإسلام، وكونِه حقًّا، فتحقَّق لهم الارتيابُ بعد وقوع الإيمانِ منهم، وإن كان هذا الإيمانُ غيرَ ثابت أو راسخ فيهم.

دلالةُ التَّعبير بلفظ الخوف:

مَن أساء الظنَّ بأحدٍ لزمه الخوف منه

الخَوْفُ: توقُّع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، والرَّجاء والطمع: توقُّع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة، ويضادُّ الخوفَ الأمنُ، ويُستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية، والخوف من الله لا يُراد به ما يخطر بالبال مِن الرُّعب، كاستشعار الخوف مِن الأسد، بل إنَّما يُراد به الكَفُّ عن المعاصي واختيار الطّاعات، ولذلك قيل: لا يعدُّ خائفًا مَن لم يكن للذنوب تاركًا، والتَّخويفُ من الله تعالى هو الحثُّ على التَّحرُّز[2]، وإنَّما عُبِّر بالخوف في حقِّهم في قوله: ﴿أَمْ يَخَافُونَ﴾؛ لأنَّهم سيِّئو الظنِّ بالله ورسوله؛ بدليل عدم انقيادهم لحكمه ﷺ إذا لم يكن الحقُّ لهم، فأمّا إن كان لهم؛ أتَوه مذعنين.

دلالةُ صيغةِ فِعل الخوف والحيف:

المنافقون يسيئون الظنَّ بالله في كل وقت

ورد معنى الحيف - وكذلك فعل الخوف - مضارعًا؛ لِلْإِشارَةِ

(1) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 6/ 187.
(2) الراغب، المفردات: (خوف).

إِلَى أَنَّهُ خَوَّفَ في الحالِ مِنَ الحَيْفِ في المُسْتَقْبَلِ، كَما يَقْتَضيهِ دُخولُ: ﴿أَن﴾ - وهيَ حَرْفُ الاِسْتِقْبالِ - على فِعْلِ: ﴿يَحِيفَ﴾؛ فهُم خافوا مِنْ وُقوعِ الحَيْفِ بَعْدَ نَشْرِ الخُصومَةِ، فمِنْ ثَمَّ أَعْرَضوا عَنِ التَّحاكُمِ إِلَى الرَّسول ﷺ [1] فهو للدَّلالة على تجدُّده؛ كلّما دُعوا إلى حكم الله ورسوله، مع استحضار صورة الفعل الماضي.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بلفظ الحيف:

الحَيْفُ: الميل في الحكم والجنوح إلى أحد الجانبين، والمراد به هنا الجَورُ في الحكم، ويقال: تَحَيَّفْتُ الشيء: أخذته من جوانبه"[2]، فهُم ظنّوا بعقولهم القاصرة أنَّ لجوْءَهم إلى رسول ﷺ ليكون حكَمًا بينهم، يكون داعيًا إلى جَوْره ﷺ عليهم، مع ميله عنهم إلى غيرهم، فقد أساؤوا الظنَّ بالله وبرسوله، فدخل في قلوبهم بغضُهما، فكانوا يُحِسُّون دائمًا ببُغض الله ورسوله لهم، فنشأ عن هذا توهُّمُ أنَّ رسول الله سيجور في حكومته عليهم مائلًا إلى غيرهم؛ لأنَّ الحيف جورٌ مع ميل، والجورُ: قد يصحبه ميلٌ، وقد لا يصحبه، وهذا دأبُ المنافقين الذين عميت قلوبُهم، وسُدَّت أمامهم أبواب الحقِّ، فأصبحوا لا يرون، ولا يسمعون إلّا حديث أنفسهم لمرض قلوبهم، وفساد معتقدهم، كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلّا دُعاءً ونداءً.

اللُّجوء إلى الله تعالى ركنٌ حصين، لا جور فيه، ولا حيف

سرُّ إسنادِ فعل الحيف إلى الله ورسوله:

لمّا كان رسول الله ﷺ إنَّما يحكم بحكم الله تعالى ويأمر بشرعهِ الذي شرعه الله له، وكان المنافقون موسومين بمرض قلوبهم وفساد معتقدهم؛ وُسِمَ فعلُ الحيف بكونه منسوبًا إلى الله تعالى - حاشاه وحاشا رسوله - وإلى المعصوم ﷺ وهو لا يحكم إلّا بوحي من الله تعالى.

لمَّا بالغوا في دعواهم الإيمانَ بالله ورسوله؛ نسبوا الحيف إليهما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 272.
(2) الراغب، المفردات: (حيف).

وإسنادُ الحيف إلى الله ورسوله إنّما هو على معنى أن يكون ما شرعهُ الإسلامُ حيفًا لا يُظهرُ الحُقوق، وهذا كناية عن كونهم يعتقدون أنّهُ غيرُ مُنزّل من الله، وأن يكون حُكمُ الرّسول بغير ما أمر الله، فهُم يطعنون في الحُكم وفي الحاكم، وما ذلك إلّا لأنّهُم لا يُؤمنون بأنّ شريعة الإسلام مُنزّلة من الله، ولا يُؤمنون بأنّ مُحمّدًا ﷺ مُرسل من عند الله، فالكلامُ كناية عن إنكارهم أن تكون الشّريعةُ إلهيّةً، وأن يكون الآتي بها صادقًا فيما أتى به[1].

معنى (على)، ودلالةُ التعبير بها:

تـمـكَّـنَ بغضُ الإيمان منهم، فـظـهـر في كـل أحـوالِـهـم قـولًا وفعلًا

معنى (على) في أصل الاستعمال العلوُّ حقيقة أو مجازًا، وهو في قوله: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ علوٌّ مجازيٌّ، فيدلُّ على علوِّ حكم الله تعالى عليهم وإحاطته بهم، فيكون ظلمُ الله ورسوله إيَّاهم بالغًا فيهم كلَّ مبلغ، فهو محيط بهم، يكتنفهم مِن كلِّ جهة، وهذا إبلاغ في إساءة الظنِّ بالله ورسوله؛ ناشئةٌ عن بغضهم الإيمان بهما، فبدل أن يجعلوه حكمًا صادقًا وعادلًا جعلوه ظلمًا وحيفًا بهم وجورًا على حقوقهم، وذلك بسبب نفوسهم، وقلوبهم المريضة، وارتيابهم في هذا الحكم العادل الذي لا يُظلم أحدٌ في حضرته ﷺ لأنَّ حُكمه مِن حُكم الله تعالى والله تعالى هو العدلُ المطلق، ومِن ثَمَّ كان نبيُّهُ ﷺ كذلك.

سرُّ توسُّطِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بين ﴿ٱللَّهُ﴾، و﴿وَرَسُولُهُۥ﴾:

المبالغةُ في سوء الـظـنِّ بـالـلـه ورسـولـه مِـن شأن المنافقين

في توسُّط الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بين ﴿ٱللَّهُ﴾، و: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾: إشارةٌ إلى فخامة هذا الحيف في أبصار المنافقين وبصائرِهم؛ لأنَّه حيفٌ مستمدٌّ من جهتين استقلالًا: جهةِ الله، وجهةِ رسوله ﷺ فيكون تقديرُ الكلام؛ بناءً على تقديم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾: أن يحيف الله عليهم، ورسولُهُ عليهم، وكأنَّ السبب في ذلك هو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 272.

بغضُهم للإيمان نفسِه، لا لشخص الرسول محمَّدٍ ﷺ ويؤنس بهذا أنَّ أوَّل ما قصَّه القرآنُ عنهم في هذا المقطع المعنويِّ هو قولُهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾، ففي توسُّطه بينهم وتقديمه على ما بعده: تنبيهٌ على عظيم بُغْضهم للإيمان بالله ورسوله.

سرُّ الفصلِ والإضرابِ في جملة: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

المنافقون قوم تحقَّق فيهم الظُّلم كلُّه

لمّا عدَّد القرآن - فيما سبق - مرضَ قلوبهم وارتيابَهم وخوفَهم جَور الله تعالى وجور رسوله ﷺ انتقل هنا لبيان صفة أخرى، فقال تعالى: ﴿بَلۡ﴾، وذلك على جهة الاستئناف البياني؛ لأنَّ المتلقّي لمَّا تلقَّى تلك الاستفهاماتِ الثلاثة السابقة، ثمّ أعقبهنَّ حرف الإضراب؛ ترقَّبَ ماذا سيكون عليه تحقيقُ حال المنافقين المحدَّث عنهم، فكان قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بيانًا لما يترقَّبُهُ، ويتشوَّفُ إليه[1].

معنى ﴿بَلۡ﴾:

مجموعُ ما قبل (بل) يؤدّي إلى ما بعدها مِن إثبات الظلم لهم

﴿بَلۡ﴾ حرف للإضراب الانتقالي، ووردت في قوله: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ للانتقال من الحديث عمّا اتَّصفوا به من الصفات المذكورة آنفًا إلى إثبات ظلمهم، واتِّصافهم بهذه الصفة الشنيعة، التي سَدَّت عليهم منافذَ الخير والاعتراف بالحقِّ والقبول به؛ لتكون صفةُ الظُّلم كالتعليل لما سبقها من الصفات الذميمة، وتوكيدًا أيضًا لها، وأيُّ ظلمٍ أكبر من النِّفاق ومخادعة الله وسوء الظن به وبرسوله؟

علَّةُ عدم تكرار (أم):

كـونُ المنافقين ظالمين أمرٌ جليٌّ

لَم يُؤْتَ بالإضْرابِ بـ(أَم) في قوله: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لِأَنَّ (أَم) لا بُدَّ مَعَها مِنْ مَعْنَى الِاسْتِفْهام، ولَيْسَ المُرادُ عَطْفَ كَوْنِهِم ظالِمِينَ على الاسْتِفْهامِ المُسْتَعْمَلِ في التَّنْبِيهِ، بَلِ المُرادُ به إفادَةُ اتِّصافِهِم بِالظُّلْمِ دونَ غَيْرِهِم؛ لِأَنَّهُ قَدِ اتَّضَحَ حالُهُم، فلا داعيَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 272.

لِإيرادِهِ بِصيغَةِ اسْتِفْهامِ التَّنْبيهِ، ولَيْسَتْ ﴿بَلْ﴾ هُنا لِلْإِبْطالِ؛ لِأَنَّهُ لا يَسْتَقيمُ إِبْطالُ جَميعِ الأَقْسامِ المُتَقَدِّمَةِ، فإِنَّ مِنْها مَرَضَ قُلوبِهم، وهوَ ثابِتٌ، ولا دَليلَ على قَصْدِ إِبْطالِ القِسْمِ الأَخيرِ خاصَّةً، ولا على إِبْطالِ القِسْمَيْنِ الآخَرَيْنِ[1].

دلالةُ الإشارةِ بالبعيد:

مِـثْـلُ الـظـالـمِ لـلـه ولـرسـولـه ولـنـفـسـه يـحـذرُ منه كلُّ عاقل

وردت الإشارة بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى هؤلاء المنافقين؛ لقصد تمييزهم أكملَ تمييز في وصفهم بصفة هي من أخسِّ الصفات وأرذلها، وهي الظُّلم؛ إذ هو شامل للجهل والشِّرك والفسوق وغيرِ ذلك مِن مجاوزة الحقِّ، وعدمِ الرُّكون إلى العدل، ومِن هنا يُستعمل في الذنوب كبيرها وصغيرها سواءً.

وعُبِّر بـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أيضًا؛ لتعيينهم بالذَّمِّ بما تحقَّق فيهم من الظُّلْم، فهُم يَقيسونَ النّاسَ على حَسَبِ ما يَقيسونَ أَنْفُسَهُم، فلَمّا كانوا أَهْلَ ظُلْمٍ؛ ظَنّوا بِمَنْ هوَ أَهْلُ الإِنْصافِ أَنَّهُ ظالِمٌ، كَما قالَ أَبو الطَّيِّبِ:

إِذا ساءَ فِعْلُ المَرْءِ ساءَتْ ظُنونُهُ *** وصَدَّقَ ما يَعْتادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ[2]

وقد تكون الإشارة بالبعيد؛ لتحقير شأنِهم وما هم عليه، أو للدَّلالة على بُعدِهم وإغراقهم في الظُّلم، وقد سبقت الإشارة بذكر أوصاف لهم، فجاء قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ ليدلَّ على أنَّهم جديرون بالحكم عليهم بالظُّلم؛ بسبب تلك الأوصاف الثابتة لهم.

دلالةُ تعريفِ طرفَي الجملة:

حـالُ المنافقينَ يُـثـبـت كـونَـهـم ظالمين

ذُكِرَ طرفا الجملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ معرَّفين؛ فدلَّ تعريفهما على التَّخصيص والقصر، أي: هم الظالمون، لا شرع الله، ولا حكم رسوله، فالثاني هو المقصور، والأوَّل هو المقصور عليه،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 272.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 273.

والمعنى: أنَّهم يخافون أن يحيف الرَّسول عليهم، ويظلمهم، وليس الرسول بالذي يظلم، بل هم الظالمون، فأسلوب القصر ذو قوَّة وحسم في الردِّ على المنافقين[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿هُمُ﴾:

امتلأت قلوبُهم باعتقاد ظلم الله ورسوله إيَّاهم، فاستحقوا عكسَ ذلك بقوةٍ

يُعَدُّ ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ أحدَ أدوات التوكيد، وسمّي ضميرًا؛ تجوُّزًا لمجيئه على صورة الضَّمير، وسمّي ضمير فصل؛ لكونه فاصلًا بين المبتدأ وخبره، وهو لا محلَّ له من الإعراب، ويفيد التَّأكيد والاختصاص، وأنَّ ما بعده خبرٌ لا صفة، والخبر أقوى في الدلالة من الصِّفة لكونه عمدةً في الكلام، ومجيئه هنا زاد الأمر تأكيدًا في وصف هؤلاءِ بالظُّلم، مع كونهم مخصوصين بتلك الصِّفة لا يتجاوزونها، ولا تنفكُّ عنهم أبدًا، سواء كان دالًّا على القصر، أم لا، وعلى كلٍّ فهو توكيدٌ لمضمون الجملة فوق التوكيد الحاصل بالقصر المتحقِّق مِن تعريف الطرفين.

دلالةُ تعريفِ: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

مَن أبغضَ الإيمان؛ كمل ظلمُه

عُرِّف قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بـ(أل)، ومعناها الكمال، كـ(أل) التي في: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 2] في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:2]، والمعنى: هم الكاملون في الظُّلم، الجامعون لتلك الخصالِ؛ لأنَّ قلوبَهُم مطبوعةٌ على المرض والريب، لا أنَّ فيها نوعًا واحدًا منه، وليسوا يخافون الجور، بل هو مرادُهم؛ إذا كان الحقُّ عليهم[2]، ومن هنا لم يقبلوا حكمَ رسولِ اللهِ فيهم.

دلالةُ حذفِ المتعلَّق:

أبغضوا الإيمان؛ فانفردوا بعموم ظلمهم

حُذِف متعلِّق قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ إيجازًا لسبق ما يدلُّ عليه، فيما ذَكر من الأوصاف التي سبقت عن هؤلاء، ثمَّ إنَّ ذِكرَ هذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 273.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 276.

المتعلِّق يوهمُ خلاف المقصود؛ لأنَّ الظُّلم هنا تشعَّب، وتعدَّد بين ظلم أنفسهم، وظلم الرسول ﷺ في الحكم، وظلم غيرهم ممَّنِ اقتفى أثرهم، فإذا ذُكر متعلِّقٌ معيَّنٌ؛ أوهم استبعادَ غيره، فحُذِف لعمومه، وهذا تقويةٌ لمعنى الكمال في: (أل)، ولمعنى القصر في تعريفِ الطَّرفين؛ كأنَّه لا ظالمَ غيرهم على جهة الحقيقة.

وحُذِفَ أيضًا؛ لتوجيه النُّفوس لإثبات فعل الظُّلم لهؤلاء في كونهم الفاعلين له دون النَّظر إلى المفعول، والمرادُ: الظّالمون أنفسَهم وغيرهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحيف والجور:

الحَيْفُ: الميل في الحُكم والجنوح إلى أحد الجانبين، فهو جورٌ مع ميل، والجورُ خلاف الاستقامة في الحكم، وفي السيرة السلطانية تقول: جار الحاكمُ في حكمه، والسلطان في سيرته؛ إذا فارق الاستقامة في ذلك[1]، فالجور قد يكون معه ميلٌ، وقد لا يكون، فالحيفُ أعمُّ مِن هذه الجهة، وبناء عليه: فالتَّعبير بالحيف - في نور سياق حكومة رسول الله (ﷺ) فيهم - يكشف طبيعةَ قلوبِهم المريضة حيث إنَّهم يخشون أن يحكمَ عليهم، فيُنْتَقصُ ممّا عندهم، أو يضيع كلَّهُ، فهم لا يرضون بهذا ولا ذاك لفساد قلوبهم وخُبْث طويَّتهم، وفي هذه المادة: ﴿يَحِيفَ﴾ إشعارٌ بأنَّهم أحسوا ببُغض اللهِ لهم، وأنَّه - حاشاه ﷻ - يميلُ عنهم إلى غيرهم، فلذلك قصَّ القرآن أنَّهم تولوا، وأعرضوا.

الجورُ يختصُّ بأنَّه خلاف الاستقامة، والحيف جورٌ معَ ميلٍ

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: 172، والراغب، المفردات: (حيف).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»